تقديم

هذه سلسلة من المجاميع المتوالية تشتمل كل حلقة منها على نخبة من الكتب الحية التى عاشت قبل العصر الحاضر جيلا أو جيلين ، وربما عاشت عدة أجيال منذ كتابتها فى العصور الماضية ولم يزل لها ذكر متجدد الى الزمن الأخير .

وتتردد الاشارة الى رف الجد ، او مكتبة الجد ، خلال المناقشة حول هذه الكتب ، لأن الفكرة فى مناقشتها أنها من المطالعات التى يجدها القارىء فى بيته بين موروثاته عن جده ، ظاهرة بين تلك الموروثات لأنها مباحة لا غبار عليها بين أبناء الجيل الذى عاش فيه الجد الكبير ، أو متوارية خلف الصفوف وبين الزوايا لأنها مما يقراه الجد ويشفق من وصوله الى ابنه أو حفيده ، لاعتقاده أنها موضع ظنه عند جميع الناس أو أنها مما يحتمله ذهن الشيخ المجرب ولا يحتمله ذهن الصبى الناشىء والفتى الذى لم يتمرس — بعد — بتجارب الأيام .

وتجرى المناقشة حول كل كتاب من هذه الكتب فى ندوة يحضرها ثلاثة من القراء النقاد الذين اطلعوا على الكتاب وتمثلت لهم وجهة نظر فيه ، ويغلب أن تختلف وجهات النظر بين هؤلاء القراء النقاد وأن يكون هذا الاختلاف منتظرا منهم بحكم سوابقهم فى الدراسة ومذاهبهم فى شئون الأدب والثقافة ، فيخرج القارىء من مناقشاتهم بجملة الآراء والمآخذ وزبدة التعليقات والردود التى تحيط بالكتاب وبمؤلفه ، وتدل على وزن الكتاب والمؤلف فى ميزان عصره وفى موازين العصر الحاضر ، ويندر أن يكون للكتاب ، أو للمؤلف ، وزن واحد فى جميع هذه الأحوال .

وهذه طريقة فى عرض الكتب يستفاد منها ما ليس يستفاد من عرض

الكتاب فى ميزان ناقد واحد أو زمن واحد ، ويخرج منها القارىء بانفع الثمرات التى يجنيها القارىء من الاطلاع ، وهى ــ من جهة ــ سعة النظر فى الحكم على الأفكار والمفكرين ، وعادة الاحاطة بالجوانب المتقابلة والمتعارضة حول كل فكرة وكل مفكر وكل عصر تروج فيه الافكار ويعيش فيه المفكرون أو تعاد فيه افكارهم الى الحياة .

ومن جهة اخرى ينتهى القارىء من تلك المناقشات ، ومن تعدد الأحكام والمقاييس فى العصور ، الى الجانب الدائم الحى من الفكرة وصاحبها ، بمعزل من ملابسات الظروف الاجتماعية واضطراب الاذواق الأدبية ومنازع الميول والأهواء بين الأشخاص والجماعات ، وبين البيئات والأطوار المتقلبة على تتابع الأزمنة وتباعد الأوطان .

وفى هذه المجموعة الأولى ــ مثلا ــ خمسة من المؤلفين وخمسة من المؤلفات أو مجاميع التأليف .

تعرض لنا تشارلز ديكنز صاحب قصة ــ « صديقنا المشترك » ــ وأوسكار وايلد صاحب المسرحية الموسومة باسم « اهمية الجدية » او وجه الاهتمام بان يكون الانسان متصفا بالجد مسمى باسمه ، وچون ستيوارت مل صاحب كتاب الحرية ، وفتزچيرالد ناقل رباعيات الخيام ، وچى دى موپاسان صاحب الشهرة العالمية الواسعة فى تأليف القصص القصار .

ان رواية « صديقنا المشترك » من روايات ديكنز التى يجول فيها قلم الناقد الفنى كل مجال وتسمح لناقدها بالخوض فى وجوه المقارنة بين عمل المؤلف نفسه ابان شبابه وعمله بعد اشرافه على نهاية شوطه ، ولكنها ترينا بين مقاييس النقد على اختلافها حقيقة واحدة عن العبقرية التى خلقت هذه الرواية وخلقت ما تقدمها من روايات تفوقها أو تقل عنها ، وتلك الحقيقة الواحدة هى الصفة الانسانية الغالبة على كل عبقرية تستحق البقاء وتستحق آثارها الدوام ، فقد كان ديكنز ابن طبقته وابن عصره وابن أمته بملامحه الواضحة التى لا تخفى من النظرة

الأولى ولكنه كان وراء كل نظرة ، أو فوق كل نظرة ، انسانا يشارك فى الطبيعة البشرية كل انسان من كل طبقة ومن كل عصر ومن كل أمة، فلا ترى فى صورة بطل من ابطاله او شخص من شخوصه أن المؤلف ينسى امانة التحليل وصدق العاطفة ليبرز الفقير او الغنى أو القريب أو الغريب على غير صورته التى يكون عليها وهو انسان كيفما كان ، وقد يعرض لجانب من جوانب السخرية يلازم معشرا من الناس ويشتهرون به، فيبرزه فى حالة من الحالات على حكم الصنعة القاهرة ، فاذا وفاه حقه على هذه الحالة لم يلبث أن يعود الى الجوانب الأخرى التى تقابل فى ذلك المعشر جوانب السخرية فيوفيها حقها كذلك ، ولا يفارق هذه السنة من سنن العدل الفنى فى تحليل شخص واحد من شخوصه ، ومنهم ابوه واقرب الناس اليـه .

وأوسكار وايلد صاحب المسرحية التى تسخر بالجد والجـدية ، يستخدم رخصة الفن ليملأ عالمه ومدينته باليراقع والاقناع والأسماء المستعارة ، ولكنه يفعل ذلك ليرينا الوجوه والنفوس من وراء البراقع والأقناع ويرينا المسمى الصحيح وراء اسمه المستعار فى حياته المطوية وحياته المكتشفة للأنظار ، ولعله أراد أن يقول ـ أو قال بلسان الحال ـ ان الانسان أوسكار وايلد انما هو أحد الأناسى من أبناء زمانه ، وان المؤلف أوسكار وايلد قد خرج من عصره لينظر اليه فى آفاق الحقيقة الفنية ، كما ننظر اليه الآن على بعد السنين .

* * *

ويتساوى فى كتاب چون ستيوارت مل أن يسمى رسالة فى الحرية أو رسالة فى حقوق الانسان ، لأن الحرية ـ على مذهب هذا الفيلسوف ـ هى صفوة حقوق الانسـان الطبيعية فى التفكير والشعور والاعتقـاد ، وخلاصتهـا ان الانسـان صاحب حق مطـلق فى حرية الرأى والذوق والضمير ، لا يحده حاجز من الحواجز التى يقيمها المجتمع الا أن يمس حرية انسان آخر أو يجور على حريات الجماعة البشرية التى يعيش بين

ظهرانيها ، ولا فرق عند الفيلسوف بين الخطر على حرية الانسان من قبل الحاكمين او من قبل المحكومين ، فانه اوشك ان يرى أن طغيان الرأى العام يحل شيئا فشيئا محل الطغيان المرهوب من سلطان الاستبداد القديم .

واختلاف الآراء فى فهم الحرية كما شرحها الفيلسوف كاختلافها فى فهم معنى الديمقراطية بين القرن التاسع عشر والقرن العشرين ، وبين الأمم التى تدين بالنظم الدستورية والأمم التى غلبت عليها مبادىء النازية والفاشية او مبادىء الشيوعية ، ومدارها كلها على الاختلاف بين الأعمال التى يتولاها الفرد والأعمال التى تستأثر بها الدولة ، وبين حقوق الانسان وواجباته العامة فى كل جماعة بشرية تحفظ له حقوقه ويسأل فيها عن واجباته .

وعلى عادة النقاد المشتركين فى ندوة الحوار تراهم يعرفوننا بجون ستيوارت مل الانسان كما يعرفوننا بجون ستيوارت مل الفيلسوف ، فهو أديب يستروح لانشاد الشعر وكريم يجيش بعاطفة النخوة والمروءة ، وهو مثل من الأمثلة الكثيرة على ضرورة الاقتران بين منطق العقل ومنطق العاطفة فى كل عبقرية تتصدى للنظر فى طبيعة الانسان او فى حقوقه الطبيعية .

وليس فى مساجلات هذه المجموعة مساجلة تتسع لتعدد المقاييس وتعارض وجهات النظر كما اتسعت لها مساجلة الندوة عن رباعيات الخيام ، ففيها متسع لتعدد المقاييس بين فارس والبلاد الانجليزية ومن ورائها البلاد الغربية على التعميم ، وفيها متسع لتعدد المقاييس بين القرن العاشر والحادى عشر وبين القرن التاسع عشر والعشرين ، وتعرض لنا الرباعيات من جانب مؤلفها كيف ينظر الانسان الى مشكلات الحياة وهو يستقبلها فى ثياب الحكيم او فى ثياب الدرويش او فى ثياب الشاعر او فى ثياب الانسان الحائر الذى لا يهتدى بحكمته ولا بدروشته ولا بشعره الى سر من أسرار الحياة ماضيها ومصيرها غير سر الحاضر بين يديه ثم

تنطوى القرون فاذا بالشاعر الغربى ينقل هذه النسخة من الحياة والفن الى زمنه وبيئته ، فيعيدها بعد سبعة قرون مصداقا لقول القائل « ان طبيعة الانسان لا تتبدل حيثما كان » ويأتى بعد ذلك دور المقاييس الفنية كيف تتباعد فى الحقبة الواحدة وكيف تعمل التقاليد الاجتماعية عملها فى تقلب العمل الفنى بين الكساد والرواج وبين الاهمال والاقبال ، فتمضى السنوات على ترجمة الرباعيات ولا تباع منها نسخة ولا تذكر على الألسنة والأقلام بكلمة ، ثم تأتى بعدها ٥ سنوات اخرى فتملأ الغرب من أقصاه الى أقصاه ويسمع بها الشرق نفسه من طريق منقولاتها الغربية ، ويصبح الشغف بها فتنة كفتنة العاشق المسحور ، فيقتنيها من يعتز بها مرصعة بالجواهر محلاة بالنقوش مصونة فى العلب الفاخرة كأنها معدة للتبرك والاستلهام،وكذلك نحس أنها لمست موضع الحيرة التى تسوق الحائر الى استلهام الغيب ونشدان الطمأنينة الى حل من حلول الخاطر والشعور ان لم يكن حلا من حلول الفكر والضمير ، ولولا أن «الانسان» هنا بارز من وراء فوارق الوطن واللغة والزمن والدين لما لقى الخيام بين قرائه فى اللغات التى لا يفهمها لو أطلع عليها أضعاف ما كان يلقاه فى زمانه بين قومه ، لأنهم لم يشاركوه فى حيرته كما شاركه فيها انسان الحضارة الغربية من أبناء القرن التاسع عشر والقرن العشرين .

* * *

ويطالعنا من ندوة موپاسان حكم حاسم ومقياس صادق لقضية من أعضل قضايا الأدب والفن فى هذه الحقبة من القرن العشرين ، وتلك هى قضية الأدب المبتذل أو الأدب الشهوانى أو الأدب المكشوف الذى يحار فقهاء القانون وفقهاء النقد الأدبى فى التفرقة بين المباح منه والممنوع وبين ما يوصف منه «بالاباحية» فيمنع أو يوصف منه بالقصد والاعتدال فلا يحجر عليه .

ان نقاد الندوة يذكرون سببا لنفور السلف القريب من أقاصيص موپاسان وهو شيوع المسائل الجنسية فيها ، ثم يذكرون سببا لتصحيح

هذا الحكم ، بعد جيل أو جيلين ، وهو التفـرقة بين تنـاول المسـائل الجنسـية للتحليل الدقيق والتعريف الصحيح بطبائع الرجال والنساء ، وبين تناولها لاثارة الغرائز واختلاق المناسبات الماجنة والمعاذير الواهية لعرض الشهوات ، والاسترسال فى عرضها على نحو لا فضل فيه للكاتب ولا معرفة فيه للقارىء ، لأنه اشبه شىء بالاثارة الحسية التى يستجيب لها الحيوان كما يستجيب لها الانسـان . فكل عرض حيـوانى فهـو غواية حسية لا عمل فيها للفن ولا للفطنة ولا لدوافع الطبيعة الانسانية ، وكل عرض فنى نعرف منه شـيئا عن خلائق الجنسين الآدميين فهو سبيل من سبل الفهم والشعور تزيدنا علما بأنفسنا ومـواطن الضعف والقوة من فضائلنا ونقائصنا فى معيشة البيت ومعيشة المجتمع وما ينبغى ان تسـاس به من وازع العرف ووازع الحياء ، وليس غلو موپاسان احيانا بمانع أن يكون بين الطريقتين ذلك الفارق الذى لا لبس فيه .

وعلى هذه الوتيرة يجرى نقاد الندوات فى تعليقاتهم على الكتب التى احتوتها المجاميع التالية ، فهم ، كمـا أسلفنا ، يتحرون بنقدهم عرضين هما بلاغ الناقد من اداء وظيفته الفنية والنفسية ، وهما توضيح جوانب النظر المتعددة ، وتعريف القراء بحقيقة المؤلف النفسية من وراء تعبيراته الفنيـة .

وليس من المفروض أن يكون القارىء على علم بكل كتاب تحتويه هذه المجاميع ، ولكن تنويع جوانب النظر خليق أن يشوق من قراها الى اعادة النظر فيها ، وأن يشوق من لم يقراها الى الالمـام بها أو الاطلاع عليـها .

عباس محمود العقـاد